من تاريخ الأدب المصري

شعر القاضي الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوي

تتمة ما نشر في العدد الماضي

المديح

هناك نوعان من الشعر قيل كلاهما في مناسبته، أحدهما يموت بموت المناسبة، التي قيل فيها، والآخر يخلد ويخلد معه هذه المناسبة، ومن النوع الأول شعر المديح، فشعر المديح عند القاضي الفاضل أقل شعره كمية وقيمة، ومنه قوله يمدح صلاح الدين:

جهادك حكم الله ليس بمهدود ... وعزمك أمر الله ليس بمردود
سفينة نوح ما ركبت وعسكر ... كطوفانه والشام بالفتح قد نودي
كأنا بحر الكفر قد غيض ماؤه ... إذا ما استوت سفن لها القدس كالجودي
إذا سد باب الآذي فالجود نافذ ... ويارب مفتوح كآخر مسدود

وقوله يمدحه أيضاً:

صحا الدهر لكن بعد ما طال سكره ... وما كان إلا من دم البغي خمره
أقمت عليه الحد بالحد ضاحياً ... بسيف إذا ما اهتز قد بان سكره
فمن كان ذا هم فقد زال همُّهُ ... ومن كان ذا نذر فقد حل نذره
فيا ملكا لا يملك الخطب صبره ... كما أنه لا يجهل الدهر شكره
يجور على الهامات عادل سيفه ... ويجري على أهل الأوامر أمره
لقد قمت في نصر النبي وآله ... مقاماً على الرحمن قد حق أجره
سرى ملك الافرنج ينصر جمعهم ... فما ضرهم في نصرة الحق كفره
وما هي إلا آية نبوية ... أقامت لهم بالنفع من حيف ضره
وعادتهم من قبل آية جدهم ... فينصرهم من لا يؤمل نصره

وقال من موشح في مدح الفضل بن يحيى بن خالد:

دع اللوم يا عاذلي ... فما أنت بالعادل
ولا تكثرن الكلام ... وأقصر فهذا الملام
على الصب مثل الكلام ... ولو قمت في كل عام
تلوم إلى القابل ... فما أنت بالقابل

وليست هذه النماذج في مستوى شعره الآخر على ما أعتقد، وفيها تكلف ظاهر — وأكبر ما يلفت النظر في شعر المديح عند القاضي الفاضل أنه لا يبدأه — إلا في القليل النادر — غزلا كما كانت عادة أسلافه، كما أنه لا ينزل به إلى المستوى الذي نزل إليه كثير من الشعراء الأقدمين. وأقصى ما وصل إليه مديحه قوله

لقد سالمتنا صروف الزمان ... وما برحت قبلها عائدة
وأمطرت نوء الندى دائماً ... فهزت به أرضنا الهامدة
وأسهرت عينك للمكرمات ... فأقررت أعيننا الهاجدة
وأطفت حرارة آمالنا ... مغانمُ إحسانك الباردة

وقوله:

وتلق خطوب الدهر إن جد جدّها ... بعزم مجد في عزيمة هازل
بفخر يرد النجم ليس بصاعد ... وجود يرد القطر ليس بنازل
سماك فخار لا يسمى بأعزل ... ولا لله ليست تُراع بعازل
أقول إذا ما جاء هل من مفاخر ... كقولي إذا ما جدّ هل من مناز
وكم لك من يوم أغر محجل ... ترد به قسرا نوازي النوازل

وكذلك قوله في مدح شجاع وزير الخلافة من قصيدة طويلة

أما ومنك على أعدائك الطلب ... فإن أعدى عدو عندنا الهرب
أنت الحياة التي ما بعدها رغب ... أو الحمام الذي ما قبله رهب

عام ١٩٠٠ يقاسي آلام مرضه حتى وافته المنية في مدينة فيمار Weimrr. ولم يكن في نظر الناس حين ارتحل إلى العالم الآخر إلا أديباً غريب الأطوار والأفكار. أما اليوم فله شهرة عالمية كأديب وفيلسوف. وقد كان نيتشه شاعراً مجيداً ذا عقل وثاب وإحساس فياض عميق، في حين أن بقية الشعراء لم يكن لهم إلا مجرد «نزوات مضطربة» وما كان نيتشه ليهمه اصطلاح الناس على تمجيده أو الاعتراف بفنه، فقد قال: «إن الطيبة لن تعود طيبة إذا لاكها الجار في فمه» فكيف حال الطيبة إذا لاكتها الناس عامة؟.

وكذا مات نيتشه، ولكن ما انقضت بعض الأعوام على وفاته حتى أخذ الأدباء والنقاد يشعرون بجبروت فكره ونبل غرضه. وكم من زعماء الأمم يتطلعون اليوم إليه كرائد لهم، ويستمدون الوحي من تفكيره! وكفاه بذلك فخراً.

ابراهيم ابراهيم يوسف

ليس يعصمهم في الفلك ما ركبوا
وليس ينجيهم في الأرض ما ضربوا

وقوله في مدحه أيضاً :

لك المجد تردى عن عداه علاه فأي رجاء قد عداه نداهُ
إذا شئت يوماً أن تراه فانما ترى ماترى في النجم دون مداهُ
وجودك سحب والسحائب أرضها
فهذى البرايا لو علمت تراهُ

وأختم مختاراته في المديح بقصيدته الجميلة التي قالها في العزيز مستعطفاً ومادحاً ومصوراً ومعاتباً :

هذا الذى كنت به أوعدُ أنجز وعد الأمس هو الغدُ
فالغد قد أعجلنى حشه عن أن أقول اليوم لاتبعدوا
مالك إلا اليوم في شدتى أنت صديق وأنت أنت العدو
فليت لا كان لسانى لمن ليس له فى كشف خطب يدُ
بدا به البخل فألحاظه عطشى وفي ريقه الوردُ
تستشهد الأغصان فى أنها كعطفه اللدن وما أشهدُ
والناس حساد على وصله وما ألوم الناس أن يحسدوا
إن شبهوه صنما فأنهم فانهم فى الحب قد ألحدوا
وذلك الجمر على خده يقبسك النور ولا يوقدُ
كأنما قام بمحرابه من صدغه ذو خشية يسجدُ
يدعو لأيام العزيز التى بالعدل فى أحكامها تخلدُ
فكل أرض بالندى جنة وكل دار للدعا مسجدُ
يا نعمة الله التى فضلها يجحد إيمان الذى يجحدُ
تستنفدُ الآمال معروفه وهو على المعهود لا ينفدُ
لله باب منك فى أرضه ما دونه ملجا ولا مقصدُ
ويستوى مورد معروفه مسود هذا الخلق والسيدُ
عبدهم حر بإعتاقه وحرهم بالجود مستعبدُ
كلهم أسرى ندى سرهم إنهم فى كفه أعبدُ

الزهد

وشعره فى الزهد وبكاء الزمان ، والحنين إلى الأوطان كثير أكثره فى بكاء الشباب وذم المشيب فهو يقول من قصيدة :

العمر كالكأس والأيام تمزجه والشيب فيه قذى فى موضع الحبب

ويخاطب الشباب بقوله منها :

نار وإن لم يكن كالنار محرقة فإن فى الشعر منها آية اللهبِ
ولى صباه وأبقى شهب ليلته والصبح ليس يأمون على الشهب
يا ليلة ما أظن الصبح يذكرها
شيبت رأسى ورأس الفجر لم يشبِ
وخيمة العمر إن شد الصباح لها عمودها كان حبل الشمس كالطنبِ
ونحن نأمل أسباب الحياة بما مثلته وأراه أضعف السببِ
وحجة العمر أكدار فان غلطت بالصفو دنياك فاعددها من النشبِ
يحبك الناس إن أمسكت عن طلب
والله يمقت إن أمسكت عن طلبِ
إن كان رزق بماء الوجه محتلباً فرزق ربك يأتى غير محتلبِ

ويقول فى الشيب أيضاً :

ما مع الشيب حديث فى غزل قد شغلنا منه بالضيف نزلْ
لست ممن ينزل الضيفُ به فيراه الضيف عنه فى شغلْ

وكذلك يقول :

بلغت أول عمرى أرذل العمر فلم يزدنى اشتعال الشيب فى الشعر
والشيب والشعر كانا ساكنى خلدى
وإنما انتقلا منه إلى نظرى
أما خديعة أحلام أغر بها فى يقظتى فكر جاءت على فكر
كان الحمام أمام الصفو أرفق بى من الحياة التى أفضت إلى الكدر
علا البياض قتور كان أوله هذا البياض الذى يعلو على الشعر
فالليل ليل شباب المر إن سلكت فيه النية لم يسلك بمعتكر
عمر الفتى ليلة والموت صبحتها
والشيب بين الدجى والصبح كالسحر

متفرقات له

وللقاضى الفاضل شعر غير قليل فى الرثاء والهجاء والوصف والحكم وغير ذلك فهو يرثى العزيز فيقول مخاطباً قصره :

لئن صرت فوق الأرض أرضاً فربما
عهدناك من جوف السماء لنا سما
حكيت لنا بالأمس عنهم حقيقة فأصبحت أنت اليوم ظناً مرجماً
عزيز علينا أن نراك على البلى تراباً نهى المشغوف أن يتتيما
تصدى له من لا يراقب حرمة ومن ليس يرعى للمكارم محرماً
وما ساءنى أن ترحل الدار بعدهم إذا ذهب الحامى فلا بقى الحمى

وقال هاجياً ما زحاً :

ولقد رأيت وما سمعت بمثله ... للبين بينهم غراباً أعصما
وجه عليه من القباحة مسحة ... ظلم اليسار وقد رآه فأظلما
وعليه وجه قد أجيبت دعوة ... فيه من الداعي عليه فأرغما
لو أنه ذنب لكان كبيرة ... أو أنه طود لكان مقطما
لو شئت أن أرقى لنيل قرونه ... لجعلت ذاك الكتف تحتي سلماً

وقال في كتم السر :

السر مالٌ أو دم ... في سحره لا في يديه
إن كان يكتم سره ... كان الخيار به إليه
أو كان يفشي شره ... كان الخيار به عليه

وقال من قصيدة :

وإن امرأ أنفاسه نحو قبره ... خطاه لمحثوث المسير ولا يدري

وقال أيضاً :

يا خائباً بالمعاصي ... كفيت عقبى الخلو
لئن أمنت الأعادي ... فالنفس أدنى عدو

وقال في كتاب :

كتاب صحبت الأنس حين قرأته
كصحبة ما فيه من اللفظ للمعنى
هو الجوهر الأعلى وما قد رأيته
من الجوهر الأعلى هو العرض الأدنى

وقال :

لا يعجز الله هارب هربا ... سحابه مدرك إذا طلبا
أين يفر المغرور من أجل ... ومن بلاء كلاهما كتبا
إذا رأى الشمس حوله اشتبكت ... قال أداة تفيدني الغلبا
وهي بمنصوبها له شرك ... وهو على نفسه به نصبا
يا موقد النبي إن موقده ... لناره يصطلي بها حطبا
عمائم للسنان تلبسها الرمح ... وترخي لها الدما عذبا
وتسبح العدا بها قضباً ... تخر يوم الوغى له القضبا

وله أيضاً :

سرت فكأن الليل قبل خدها ... فأبقى به قطفاً وأسند عقربا
فما استغربت في موطن الحب غربتي
فهذا الدجى في صبحها قد تغربا

وقال يخاطب الليل :

فياليل ما افترق العاشقان ... إذا كنت بينهما حاضراً
فقد جاءني هاجري واصلا ... فلا ترجعن واصلي هاجرا
وسرّبه غلتي واردا ... ولا تفجعني به صادرا
ودعني أطارحه شكوى الفراق ... واحفظ عهود الهوى ظاهرا
لعلك تعرف سر الغرام ... فتصبح للمبتلى عاذرا
وتعشق بدرك عشق البدور ... وترجع مثلي بهم حائرا
فلا تبعث العجز قبل اللقاء ... ولا تتبع الأول الآخرا
فكم في حواشيك من طائر ... يقص به قلبي الطائرا
ويكسر صبحك لي عيته ... فياليل دمت له كاسرا

هذه نماذج عرضتها من شعر القاضي الفاضل وهي ليست أحسن ما في ديوانه ، ولكنها هي التي تعطي الأديب صورة صحيحة عنه ، وأردت بعرضها التنويه به كشاعر لا يزال ديوانه مخطوطاً ، موجهاً نظر الأدباء والباحثين إلى الكنز الثمين الدفين في دار الكتب المصرية وغيرها — الذي إن كنا لا نستطيع نشره الآن ، فاننا لا شك نستطيع الاشادة به على صفحات « الرسالة » التي تغار على نشر التراث العربي القيم ، تاركا البحث والتحليل في شعره وأدب غيره من الأدباء والمغمورين إلى الباحثين والأدباء .

أما ديوان القاضي الفاضل فمخطوط بمكتبة معهد دمياط ، وأخذت له صورة فوتوغرافية محفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٥٩ أدب .

محمد سعيد العريان

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكي (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة